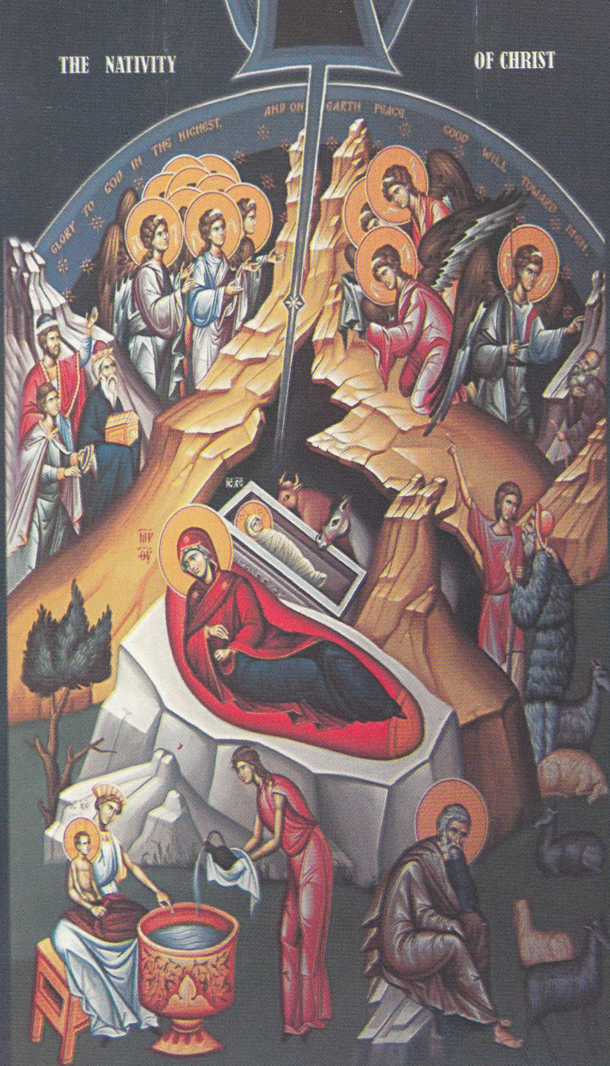
مؤسسة القديس أنطونيوس
المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية

نصوص آبائية
-١٦٥-



لنفرح بميلاد المخلِّص

للقديس أغسطينوس

ترجم هذا الكتاب عن:

The Fathers of the Church vol.38.
Saint Augustine: Sermons on Liturgical Seasons:
For The feast of the Nativity.
The Catholic University of America Press.
Washington, DC.

اسم الكتاب : لنفرح بميلاد المخلص

اسم المؤلف : للقديس أغسطينوس

اسم المترجم : د. نصحي عبد الشهيد

الطبعة الأولى : ديسمبر ٢٠١١

تصميم الغلاف : جي سي سنتر, ١٤ ش محمود حافظ سفير مصر الجديدة ٢٦٣٣٧١٢٤

اسم الناشر : مؤسسة القديس أنطونيوس ـ المركز الأرثوذكسى للدراسات الآبائية بالقاهرة : ٨ (ب) ش إسماعيل الفلكى محطة المحكمة مصر الجديدة ت: ٢٢٤١٤٠٢٣

E-mail : opcc2007@yahoo.com
Website: www.patristiccairo.com

اسم المطبعة : دار يوسف كمال للطباعة

٢ش المدارس حدائق القبة ٢٤٨٢٧٠٧٤ ـ ٢٤٨٦٥٣٧٨.



صاحب الغبطة والقداسة

البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية « ١١٧ »

حياة القديس أغسطينوس

(١) من ميلاده إلي تحوله للإيمان (٣٥٤-٣٨٦ م)

ولد أغسطينوس في بلدة تاجاستا Thagasta بمقاطعة نوميديا Numidia بشمال أفريقيا في ١٣ نوفمبر سنة ٣٥٤م وإسم أبيه باتريسيوس Patricius وأمه مونيكا إمرأة مسيحية تقيه. وتعلّم في تاجاستا وفي مادورا Madoura وفي قرطاجنه Carthage بشمال أفريقيا. وبعد أن أنهي تعليمه، علّم الخطابة في قرطاجنة، ثم في روما Rome وفي ميلان Milan بإيطاليا. وكان متمكنًا من اللغة والثقافة اللاتينية ويعرف اللغة اليونانية بدرجة متوسطة ونشأ مسيحيًا بتأثير أمه.

مال إلي البدعة المانوية وهو في سن ١٩ سنة، وصار بعد ذلك مدافعًا عن تعليم ماني بما فيه من وجود إلهين أي للخير وللشر، ويهاجم إيمان الكنيسة.

وبعد ٩ سنوات في المانوية بدأ يكتشف خطأها وصار متشككًا في كل شيء. وفي سن ٣٢ سنة كان في ميلان وإستمع لعظات القديس أمبروسيوس أسقفها فتأثر وبدأ يتحول إلي الإيمان المسيحي، ويدرك جمال وسمو الديانة التي كانت والدته مونيكا تعتنقها. ثم صار في صراع داخلي شديد بين الإيمان والشك إنتهي بتحوله تمامًا بتوبة عميقة إلي الإيمان، وقد وصف هو نفسه هذا الصراع العنيف بإخلاص وبلاغة في كتاب "إعترافاته" (Confess. VIII., 7.8).

٢- من تحوله إلي سيامته كاهنا (٣٨٦-٣٩١).

بعد تحول أغسطينوس إلي الإيمان، إعتزل لفترة في كاساجو Cassago ليجّهز نفسه للمعمودية. ثم ذهب إلي ميلان حيث إعتمد بيد القديس أمبروسيوس مع صديقه اليبيوس Aiypius وإبنه غير الشرعي أديوداتوس Adeodatus، وكان ذلك في ليلة عيد القيامة (٢٤-٢٥ أبريل

سنة ٣٨٧) وله من العمر ٣٣ سنة. ثم قرر أن يعود إلي أفريقيا مع أسرته ليتمم "الهدف المقدس" في الحياة المشتركة في خدمة الله. وأثناء سفرهم توفيت والدته مونيكا في مدينة أوستيا Ostia، فرجع إلي روما حيث قضي هناك حوالي ١٠ شهور إنشغل فيها بالحياة الرهبانية. ثم أبحر إلي أفريقيا في حوالي أغسطس ٣٨٨م، وأستقر في تاجاستا حيث "كرّس نفسه للحياة لأجل الله مع الذين كانوا متحدين معه". وعلّم الحاضرين والغائبين بواسطة الأحاديث والكتب" (كتاب بوسيديوس Possidius عن حياة أغسطينوس).

ومن الكتب الكثيرة التي كتبها في كاساجو، وميلان، وروما، وتاجاستا بإستثناء كتابين، كانت كلها حول الفلسفة المسيحية. فقد كتب عن "اليقين" و"السعادة"، و"نظام الأشياء"، و"الشر"، و"خلود النفس"، "وعظمة النفس"، و"الشر والإرادة الحرة"، و"دائرة معارف حول الأعمال الحرة"، من بينها كتاب كامل عن "الموسيقي". كما وضع كتابين ضد المانوية: مقارنة بين التعليم الأخلاقي للكنيسة وتعليم المانوية الأخلاقي. وكتاب تفسير لسفر التكوين بالطريقة الرمزية. وأخيرًا كتاب صغير عن الديانة الحقيقية الذي يحوي جذور أفكاره في كتاب مدينة الله.

٣- من سيامته كاهنا إلي الأسقفية (٣٩١-٣٩٦ م)

ذهب أغسطينوس إلي هيبّو ريجيوس Hippo Ragius "ليبحث عن مكان لإنشاء دير ويحيا مع إخوته" (serm 355. 2) وهناك فوجئ بدعوته إلي الكهنوت، التي قبلها بعد تردد كمشيئة الله، وكما خطط فقد أسس ديرًا عاش فيه ككاهن وراهب، في النسك والدراسة، "متبعًا الطريق والقاعدة التي وضعت في عصر الرسل (Possidius 5) وبناء علي رغبة أسقف المدينة ـــ علي غير العادة الأفريقية ـــ وعظ في الكنيسة (Ep. 21). وفي سنة ٣٩٥م أو ٣٩٦م سيم أسقفًا مساعدًا، وفي سنة ٣٩٧م أصبح هو الأسقف الوحيد للمدينة. ثم ترك هذا الدير (الذي صار فيما بعد معهدًا للكهنة والرهبان لكل أفريقيا (Possidius II). وذهب إلي مقر آخر

لاأسقفية وحوله إلي دير، [الذي عرف فيما بعد بإسم "الدير الإكليريكي لهيبو"] (serm 355. 356). وإذ أدرك نقصه في المعرفة اللاهوتية (Ep. 21)، فإنه غمر نفسه في دراسة الكتاب المقدس وكتابات الآباء، وواجه مشكلة مصداقية إيمان الكنيسة الجامعة، فأعطي خطابًا مهمًا حول "الإيمان وقانون الإيمان" أمام مجمع لكل أفريقيا، وشرح الأخلاق والروحانية الكتابية، كما تناول تعليم الرسول بولس عن الخلاص (من رسالتي غلاطية ورومية وسفر التكوين). ثم واصل مواجهة البدعة المانوية في مجادلة علنية مع فرتناتوس (Acta c. Fortun. Man). وكتب كتابين ضد المانوية وبدأ مواجهة البدعة الدوناتية بكتابة كتابين ضدها (Retract 1, 21).

٢- من الأسقفية حتى نياحته (٣٩٦-٤٣٠ م)

نما نشاط أغسطينوس الرعوي والأدبي في فترة الأسقفية، كما تعمّق في معرفة العقيدة المسيحية وشمل نشاطه الرعوي: (١) كنيسة هيبو: وعظ مرتين في الأسبوع (السبت والأحد)، وكثيرًا كان يعظ في أيام متتاليه، وأحيانًا يعظ مرتين في اليوم نفسه. والإهتمام بالفقراء واليتامي، وتدريب الإكليروس، وتنظيم أديرة الرجال وأديرة النساء. وإضطراره لأدارة ممتلكات الكنيسة، ثم زيارته للمرضي. (٢) كنيسة أفريقيا: الإشتراك في المجامع السنوية، رحلات كثيرة تلبية لطلب الأساقفة الزملاء سواء بدعوة منهم، أو لضرورات كنسية. (٣) الكنيسة العامة: المناقشات العقائدية، والإجابة علي أسئلة تُوجه إليه، ثم كتاب وراء كتاب حول أسئلة مُقترحه، أو موضوعات فُرضت عليه. وإستمر في مواجهة البدعة المانوية، ودحض ما يسمي (quam Vocant Fund "مقدمة الخطاب الأساسي" (C. ep. Man). مجادلاً مع فيلكس Felix حول "الخليقة وأصل الشر" مؤكدًا أن كيان المخلوقات ليس شريرًا في ذاته أصلاً (De na turaboni). ورد علي فوستوس Faustus بخصوص التوافق بين العهد

القديم والعهد الجديد. ورد علي سكوندينوس مؤكدًا عدم قابلية الله للتغير، و"عن طبيعة الشر"، و"عن الخلق من العدم". وواصل مواجهة البدعة الدوناتية، موضحًا أن المنشقين تنقصهم الأساسات التاريخية أو اللاهوتية، ورد علي المدافعين عن الدوناتية موضحًا قيمة المعمودية التي يجريها الهراطقة (De baptismo). وبرهن علي وحدة الكنيسة الشاملة مستندًا علي نصوص الكتاب المقدس وكان هو روح الجدل اللاهوتي بين الكنيسة والدوناتيين الذي جري في سنة ٤١١م. وبعد الجدل لخص أعماله ووجه نداء للدوناتيين داعيًا إياهم للوحدة. والف كتابًا للكونت بونيفاس Boniface عن تاريخ الدوناتية وتدّخل القوانين الأمبراطورية، وصلاح الكنيسة التي تدعو الخطاة وترحب بتوبتهم (De corrpt. Donat EP. 185).

وقبل أن ينتهي الصراع مع الدوناتيين، بدأ الصراع مع البيلاجية. والصراع البيلاجي ينقسم إلي قسمين، قسم تفسيري والآخر دفاعي. ففي القسم الأول نغمة أغسطينوس هادئة وودية، وفي القسم الثاني نغمته أكثر حدة خصوصًا في آخره.

كتاب أغسطينوس الأساسي الأول: (عالج فيه لأهوت "الفداء" و"المعمودية"، "الخطية الأصلية"، "والنعمة".

وكتابه الأساسي الثاني: (الروح والحرف) شرح فيه العلاقة بين الناموس والنعمة وأوضح مفهوم الحرية المسيحية. وبعد إدانة البيلاجية تدخّل ليوضح الإلتباس الذي يتحدث به البيلاجيون عن النعمة والخطية الأصلية.

وبالإضافة لكتب أغسطينوس الدفاعية له كتب أخري وتفسيرية مثل:

التعليم المسيحي: ويحوي مبادي عن تفسير الكتاب، والوعظ المقدس، والتعليم العقيدي.

وكتب أخلاقية ورعوية: عن "صلاح الزواج وروعة العذراوية" المكرسة وكتاب "عن تعليم الموعوظين". وكتاب عن "الإيمان والأعمال"

وأيضًا عن "عدم جواز الكذب". وعن "إكرام الراقدين". وعن "واجب العمل اليدوي للذين لا يشتغلون بالدراسة أو الخدمة الكهنوتية".

وكتب فلسفية لأهوتية: "مقالات عن رؤية الله"، "وحضور الله".

والكتب الثلاثة الشهيرة: ١ــ "الإعترافات"، ٢ــ "الثالوث"، ٣ــ "مدينة الله".

ورابع أقل شهرة ولكن ليس أقل أهمية وهو "سفر التكوين والحرف".

وإضافة إلي كل هذه الكتابات ينبغي أن نذكر مراسلاته حول كل الموضوعات: فلسفية، لأهوتية، تفسيرية، تاريخية، روحانية، وسيرة ذاتيه. وهذه المراسلات تبلغ ٢٧٠ خطابًا.

ونذكر أيضًا "تفسيره لإنجيل يوحنا ورسالة يوحنا الأولي"، "تفسير المزامير كلها". و"العظات" في كل المجالات ثمرة ٤٠ سنة من الوعظ والتبشير في موضوعات "كتابية"، وليتورجية، وسير قديسين وغيرها. وربما من جملة ثلاثة أو أربع آلاف، تبقي لنا ٥٧٠ عظة.

وتوفي القديس أوغسطينوس في مدينة هيبو يوم ٢٨ أغسطس سنة ٤٣٠ م.

مراجع السيرة:

1- Early Christian Encyclopedia.
2- Murray`s Dictionary of Christian Biography.

فليبارك الله في كلمات القديس أغسطينوس الميلادية لأجل بنيان نفوس المؤمنين وثباتهم في الإيمان المستقيم بشفاعة العذراء القديسة مريم، وصلوات الآباء القديسين، والقديس أنطونيوس شفيع المؤسسة والقديس أغسطينوس، وصلوات قداسة البابا الأنبا شنودة الثالث، ولإلهنا المجد إلي الأبد آمين.

١٩ نوفمبر ٢٠١١ م — **مؤسسة القديس أنطونيوس**
٩ هاتور ١٧٢٨ ش — **المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية**
تذكار مجمع نيقية المسكوني

لنفرح بميلاد المخلص
عظة ١٨٤
علي ميلاد ربنا يّسوع المسيح

١ــ طلع علينا فجر عيد ميلاد ربنا ومخلصنا يسوع المسيح، الذي فيه نبت "الحق من الأرض" (مز٨٥:١١)، فيوم يتلو يومًا وهكذا يسير الزمن حتي يصل بنا إلي إكمال السنة ليأتينا العيد، ويستحق إحتفالاً خاصًا. "فلنبتهج ونفرح فيه" (مز١١٨:٢٤). لأن إيمان المسيحيين يحرص علي الفرح الذي يقدمه لنا التواضع المرتبط بمثل هذا السمو، هو فرح لا تعرفه قلوب الأشرار بالمرة، إذ أنه " *أخفي هذه الأمور عن الحكماء والفهماء واعلنها للأطفال*" (أنظر مت١١:٢٥).

لذلك، فليتمسك المتواضعون بتواضع الله لكي عن طريق هذه المعونة العظيمة، ينالون سندًا لضعفهم فيمكنهم أن يصعدوا إلي جبل الله. أما الحكماء والفهماء فبينما هم يهدفون إلي جبال الله، فهم لا يثقون بالأمور الوضيعة، بل يتجاوزونها، ولذلك يفشلون في الوصول إلي الأمور العالية. ولأنهم فارغون، وغير مستحقين، وهم منتفخون ومعجبون بأنفسهم، فقد توقفوا ــ كما لو كان ــ عند السهل المتوسط ــ الذي إكتسحه الريح ــ بين السماء والأرض. فهم حكماء وفهماء حسب مقياس هذا العالم، ولذلك يعجزون عن الوصول إلي المستويات التي وضعها ذاك الذي صنع هذا العالم. لأنهم، لو كانت عندهم الحكمة الحقيقية التي من الله، والتي هي الله، لكانوا قد فهموا أن الله يمكنه أن يتخذ جسدًا بدون أي إحتمال لأن يتغيرّ إلي جسد؛ وإنه اتخذ لنفسه ما لم يكن له، وظل علي ما كان عليه؛ وإنه أتي

إلينا في صورة إنسان، ومع ذلك فهو لم ينفصل عن الآب، وأنه إحتفظ بطبيعته الإلهية عند ظهوره لنا في طبيعتنا البشرية؛ وأخيرًا، فإن هذه القدرة التي لم تأتِ من أي مصدر أرضي ظهرت بجسد طفل. العالم كله هو صنعه يديه وهو كائن في حضن أبيه، والحمل المعجزي لعذراء هو عمله عند مجيئه إلينا. وفي الحقيقة فإن أمه العذراء قد قدمت شهادة لجلاله، بأنها وهي عذراء قبل الحمل به، ظلت عذراء بعد ولادته، فقد حملت به ليس بواسطة رجل؛ فقد حملت إنسانًا في بطنها بدون مشاركة رجل، وقد كانت أكثر غبطة وأكثر عجبًا أن الخصوبة قد منحت لها دون أن تفقد عذراويتها.

عادة يعتبر الناس مثل هذه المعجزة العظيمة خيالية بدلاً من كونها حقيقية. لذلك فمن جهة المسيح، الإله الإنسان حيث إنهم لا يستطيعون أن يصدقوا صفاته البشرية ولذلك يحتقرونها؛ وحيث إنهم لا يمكنهم أن يحتقروا صفاته الإلهية، فهم لا يؤمنون بها. ومع ذلك فيقدر أن جسد الإله الإنسان في تواضعه هو محتقر جدًا في نظرهم، فبنفس الدرجة يكون سبب سرور لنا؛ وبمقدار ما أن خصوبة عذراء في ولادة طفل هو أمر مستحيل في نظرهم فهو في نظرنا يصير إلهيًا أكثر.

٢ــ إذن، فلنحتفل بيوم ميلاد الرب في محفل مفرح وبمهرجان مناسب. فليفرح الرجال والنساء معًا لأن المسيح، الإنسان ولد من امرأة؛ ولذلك فكلا الجنسين قد كُرِمَ. والان فلتنتقل الكرامة التي مُنحت للإنسان الأول قبل سقوطه إلي هذا الإنسان الثاني، فهناك جلبت علينا امرأة الموت، والآن أتت إلينا امرأة بالحياة. شبه جسد خطيتنا وُلِدَ لكي يتم تطهير هذا الجسد الخاطيء. الجسد لا يلام، بل فليمت عن الخطية لكي يحيا بطبيعته الحقيقة.

دع ذاك الذي كان في الخطية أن يولد ثانية في ذاك الذي وُلِدَ بدون خطية. اجتهدوا اجتهادًا شديدًا أيها الشباب، الذين قد اخترتم المسيح كمثال جدير حقًا بالتمثل به، فلم تطلبوا الزواج، فذلك الذي توقرونه لم يأت إليكم بواسطة الزواج وذلك لكي ينعم عليكم بالنعمة التي تجعلكم تحتقرون الوسيلة التي أتيتم بها إلي العالم. فأنتم صرتم في الوجود عن طريق الإتحاد الجسدي، الذي بدونه أتي هو إلي الأعراس الروحانية؛ وأنتم الذين دعيتم بطريقة خاصة إلي الأعراس الروحانية، قد منحكم النعمة أن تحتقروا الأعراس الأرضية. لذلك فأنتم لم تسعوا إلي الأفراح النابعة من المصدر الذي أخذتم منه وجودكم، لأنكم ــ أكثر من الأخرين ــ قد أحببتموه، هو الذي لم يأتِ إلي العالم بتلك الطريقة. تهللوا جدًا، أيتها العذاري القديسات، فإن عذراء قد أتت إليكم بذاك الذي يمكن أن تتزوجوا به بغير دنس، ولا يمكن أن تفقدوا ذلك الذي تحبونه سواء بالحمل أو بولادة الأطفال. تهللوا أيها الأبرار؛ إنه يوم ميلاد المُبرِّر. افرحوا وتهللوا أيها الضعفاء والمرضي؛ إن عيد ميلاد المخلص. افرحوا جدًا أيها الأسري؛ إنه عيد ميلاد الفادي. ابتهجوا جدًا أيها العبيد أنه يوم ميلاد السيد. ابتهجوا جدًا أيها الأحرار إنه يوم ميلاد المحرّر. افرحوا وتهللوا يا كل المسيحيين إنه يوم ميلاد المسيح.

٣ــ هذا الطفل المولود من الله الآب هو الذي خلق كل الدهور والآن وُلِدَ من إمراة، وقد استودعنا هذا اليوم. تلك الولادة الأولي لا يمكن أن توجد فيها أم (أي التي من الله الآب)، ولا الولادة الأخري تستدعي وجود رجل كأب. وبكلمة واحدة فالمسيح ولد من أب ومن أم معًا، وهو قد ولد بدون أب وبدون أم؛ لأنه كإله ولد من الله الآب وكإنسان ولد من أم؛ كإله

ولد بدون أم، وكإنسان ولد بدون أب. لذلك من يخبر بجيله؟ (أي بولادته)[1] لذلك فسواء اختبرنا ولادة خارج حدود الزمن أو التي بدون زرع بشر؛ فالولادة التي بلا بداية أو التي لا سابقة لها. تلك التي لم تتوقف أبدًا أو تلك التي لا يوجد لها وجود سابق أو لاحق. تلك الولادة التي ليس لها نهاية أو تلك التي لها بدايتها حيث توجد نهايتها.

إذن فقد أعلن الأنبياء حسنًا أنه سيولد وفي الحقيقة أعلنت السموات والملائكة أنه قد وُلد. ذاك الذي يضبط العالم نراه مضجعًا في مذود، طفل لا يتكلم، ومع ذلك فهو كلمة الله. ذاك الذي لا تحويه السماء حملته إمرأة هي حملت ملكنا، إنها حملت ذاك الذي به توجد، إنها أطعمت خبزنا. أيها الضعف الظاهر والتواضع العجيب الذي فيه تختفي كل الألوهية! هو بقوته يحكم الأم التي كانت طفولته خاضعة لها، وهو يغذّي بالحقيقة تلك التي أرضعته ثديها. ليت الذي لم لم يحتقر بداياتنا الوضيعة يكمل عمله فينا. وهو الذي أراد أن يصير إبنًا للإنسان لأجلنا لكي يجعلنا أبناء الله.

عظة ١٨٥

١ـ هذا اليوم يدعي عيد ميلاد الرب الذي فيه أظهر حكمة الله، أظهر نفسه كطفل عديم النطق، وكلمة الله نطق بنغم صوت بشري. ورغم أن لاهوته كان مخفيًا، فإنه أُظهِرَ بشهادة سمائية للمجوس، وأُعلن للرعاة بواسطة أصوات ملائكية. لذلك نحن نحتفل بهذا اليوم بمهرجان سنوي، هذا اليوم الذي تم فيه تحقيق النبوة: "*الحق من الأرض أشرق والبر من السماء تطلع*"[2] فالحق الكائن أزليًا في حضن الآب قد أشرق من الأرض لكي ما

---
[1] أش٥٣:٨.
[2] مز٨٤:١٢.

يوجد أيضًا في حضن أم. فالحق الذي يضبط كل العالم في مكانه، قد نبت من الأرض لكي يصير محمولاً علي يدي امرأة. فالحق الذي يغذي سعادة الملائكة بغير فساد، قد أشرق من الأرض لكي يتغذّي بواسطة لبن بشري. الحقّ الذي لا تستطيع السموات أن تحويه قد أشرق من الأرض، لكي ما يُوضع في مذود. لأنه من هو ذاك الذي تفعل نعمته مثل هذه الأمور العظيمة جدًا ويأتي في مثل هذا التواضع؟ هو بالتأكيد لم يحصل علي منفعة شخصية، بل فعل هذا يقينًا من أجل خيرنا العظيم إن كنا فقط نؤمن قم أيها الإنسان؛ لأن الله صار إنسانًا من أجلك استيقظ أيها النائم وقم من بين الأموات فيضيء لك المسيح[3]، وأنا اكرر لأن الله قد صار إنسانًا لأجلك. فلو لم يكن قد وُلِدت هكذا في الزمان لكنت أنت لا تزال ميتًا وهكذا تستمر طوال الأبدية. ولو لم يكن قد أخذ علي نفسه شبه جسد الخطية لما كنت قد تحررت أبدًا من جسد الخطية. ولو لم يكن قد أخذ هذه الصورة الرحيمة لكانت التعاسة قد ابتعلتك. ولو لم يخضع نفسه لموتك لما كنت قد أُرجعت إلي الحياة. ولو لم يعتني بك لكنت قد هلكت.

٢ـ فهل نحتفل بفرح بمجيئ خلاصنا وفدائنا. فلنحتفل ليوم العيد الذي فيه جاء العظيم غير الزمني من اليوم العظيم الغير الزمني، جاء إلي هذه الفترة القصيرة من يومنا. هو "*صار لنا برًا وقداسة وفداء، لكي كما هو مكتوب" من افتخر فليفتخر بالرب*"[4]. ولكي لا نشابه اليهود المتكبرين الذين "*يجهلون بر الله ويطلبون أن يثبتوا بر أنفسهم لم يخضعوا لبر الله*"[5] وحينما قال المرتل: الحق من الأرض أشرق اضاف "والبر من السماء

---
[3] أف٥:٤.
[4] ١كو١:٣٠-٣١.
[5] رو١٠:٣.

تطلع"[٦] هو فعل هذا لئلا تنتفخ هذه الهشاشة المائتة وتنسب البر لنفسها وتدّعي أن هذه البركات هي خاصة بها. ولئلا يرفض الإنسان بر الله في إيمانه أنه تبرر، أي صار بارًا بمجهوداته الذاتية: " الحق من الأرض أشرق" لأن المسيح الذي قال " *أنا هو الحق*"[٧] قد ولد من عذراء؛ " والبر من السماء تطلع"، لأنه بواسطة الإيمان به وهو الذي ولد من أجلنا من العذراء؛ قد تبرر الإنسان ليس بمجهوداته الذاتية ولكن بقوة الله. الحق من الأرض أشرق لأن الكلمة صار جسدًا، والبر من السماء تطلع " *لأن كل عطية صالحة وموهبة كاملة هي من فوق*"[٨]. الحق من الأرض أشرق، أي أن جسده أُخِذَ من مريم، والبر من السماء تطلع لأنه لا يستطيع أحد ان يأخذ شيئًا إن لم يكن قد أعطي من السماء"[٩].

٣ـ " *فإذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح الذي به قد صار لنا الدخول بالإيمان إلي هذه النعمة التي نحن فيها مقيمون ونفتخر علي رجاء مجد الله*"[١٠] بهذه الكلمات القليلة التي نعرف أن الرسول بولس هو الذي نطق بها أحصل علي فرح أيها الإخوة أن أخلطها بمقاطع قليلة من المزمور (الذي نتأمل فيه)، فنجد أنهما متفقان في المعني. فإذ قد تبررنا بالإيمان فليكن لنا سلام مع الله، لأن البر والسلام تلاثما بواسطة ربنا يسوع المسيح، لأن الحق من الأرض أشرق الذي به قد صار لنا الدخول بالإيمان إلي هذه النعمة التي نحن فيها مقيمون ونفتخر علي رجاء

---

٦ مز٨٤:١٢.
٧ يو١٤:٦.
٨ يع١:١٧.
٩ يو٣:٢٧.
١٠ رو٥:١٢.

مجد الله. " *فهو لا يقول نفتخر علي رجاء مجدنا. بل علي رجاء مجد الله لأن البر لم ينبع منا، بل قد تطلع من السماء*"[١١]. لذلك " *من افتخر فليفتخر بالرب*" وليس بنفسه، إذن فحينما وُلِدَ الرب الذي نحتفل بميلاده اليوم، حينما ولد من العذراء فإن الخورس الملائكي أعلن هذه الكلمات: " *المجد لله في الأعالي وعلي الأرض السلام وفي الناس المسرة*"[١٢] كيف يمكن أن يوجد سلام علي الأرض إلا بسبب "أن الحق من الأرض أشرق" أي لأن المسيح قد ولد بالجسد. وأكثر من ذلك "فهو سلامنا" الذي جعل الأثنين واحدًا"[١٣]. لكي نصير أناسًا ذوي مشيئة صالحة، مرتبطين معًا برباط الوحدة المملوءة فرحًا. فلنتهلل، إذن بهذه النعمة لكي يكون مجدنا هو شهادة ضميرنا"[١٤]. الذي فيه نفتخر ليس بأنفسنا بل بالرب. ولذلك فإن المرنم ــ في حديثه عن الرب ــ قال "*مجدي ورافع رأسي*"[١٥]. فهل هناك نعمة أعظم من عند الله قد أشرقت علينا، بأن جعل الإبن الوحيد ابن الإنسان وهكذا يجعل ابن الإنسان، ابن الله. تأمل في هذا الأمر كإقناع، كعلامة بر، وانظر إن كنت تجد فيه أي شيء سوي هبة مجانية من الله.

عظة ١٨٦

١ـ فلنتهلل يا أخوتي، لتفرح الأمم وتبتهج، ليس لأن الشمس المنظورة بل الخالق الغير منظور للشمس، قد دشن هذا اليوم الذي فيه العذراء التي

---

١١ مز٨٤:١١-١٢.
١٢ لو٢:١٤.
١٣ أف٢:١٤.
١٤ ٢كو١:١٢.
١٥ مز٣:٤.

هي أم حقيقية ولدت ذاك الذي صار منظورًا من أجلنا والذي بواسطته خُلقت هي نفسها.

هوذا عذراء تحبل ولكنها باقية عذراء؛ عذراء حبلي بطفل؛ عذراء تلد وليدها، ولكنها تظل كما هي عذراء دائمًا. لماذا تدهش من هذا، أيها الإنسان؟ لقد كان لائقًا بالله أن يولد هكذا حينما تنازل ليصير إنسانًا، هكذا جعلها هو الذي ولد منها؛ لقد كان موجودًا قبل أن تخلق هي؛ ولأنه كلي القدرة، لذلك استطاع أن يصير إنسانًا ويظل كما كان. هو خلق أمه حينما كان مع الآب؛ وحينما ولد من تلك الأم ظل في أبيه. فذلك الذي منح لأمه الامتياز بأن تظل عذراء حينما ولدت طفلها، كيف لا يستمر إلهًا حينما صار إنسانًا؟ وإضافة إلي ذلك، فحقيقة أن الكلمة صار جسدًا لا تعني أن الكلمة انسحب وتحطم عند لبسة للجسد، بل بالحري فإن ذلك الجسد اقترب من الكلمة حتي كما أن الإنسان هو نفس وجسد، هكذا المسيح يكون إلهًا وإنسانًا. فالذي هو إنسان هو نفسه الله والذي هو الله هو نفسه إنسان، لا باختلاط الطبائع بل بوحدة الشخص. أخيرًا فالذي هو ابن الله لكونه مولود من الآب هو أبدي علي الدوام مع أبيه؛ وهو الذي بكونه ولد من العذراء، صار إبن الإنسان. وهكذا فالناسوت أضيف إلي لاهوت الإبن، بدون أن ينتج عن ذلك وجودًا أربعة أقانيم؛ فيظل الثالوث باقيًا كما هو.

٢ـ لذلك لا تدع رأي بعض الأشخاص الذين لا يعطون التفاتًا لقانون الإيمان وكلمات الكتب المقدسة، يؤثر عليك. إن هؤلاء الأشخاص يقولون: " ذاك الذي كان إبن الإنسان صار ابن الله؛ والذي هو ابن الله لم يصر ابن الإنسان". وهم بقولهم هذا قد ركزوا أنتباهم علي مبدأ حقيقي، لكنهم لم يستطيعوا أن يوضحوا الحق. لأن المبدأ الذي وجهوا انتباههم إليه هو إن

الطبيعة البشرية كان يمكن أن تتغير إلي شيء أسمي، ولكن الطبيعة الإلهية لم يكن ممكنًا أن تتغير إلي شيء أقل. هذا الكلام صحيح ولكن رغم ذلك فإن الكلمة صار جسدًا دون أن يتغير اللاهوت إلي شيء أدني، لأن الإنجيل لم يقل: " الجسد صار كلمته، بل قال: " *الكلمة صار جسدًا*"[16] وإضافة إلي ذلك فالكلمة هو الله كما يقول الإنجيلي: [وكان الكلمة الله]"[17]. وما هو الجسد سوي الإنسان؟ وأكثر من ذلك فإن جسد الإنسان هذا لا يوجد في المسيح بدون نفس، حيث إنه يقول: ": *نفسي حزينة حتي الموت*"[18] لذلك إن كان الكلمة هو الله والإنسان جسد فماذا تعني عبارة "الكلمة صار جسدًا" سوي أن ذاك القوي كان إلهًا صار إنسانًا؟ وبنفس طريقة التفكير، فإن ذاك الذي كان ابن الله صار ابن الإنسان بأتخاذه لنفسه طبيعة أقل دون أن يغير طبيعته الأعلي. وذلك باتخاذه ما لم يكن له، وليس بفقدانه لما كان هو عليه. لأنه كيف نعترف في قانون الإيمان بأننا نؤمن بابن الله الذي ولد من العذراء مريم إن لم يكن الذي ولد من العذراء مريم هو ابن الله وليس مجرد إنسان؟ أي مسيحي يمكن أن ينكر أن ابن الله ولد من مريم؛ وان الله صار إنسانًا ولذلك فإن إلهًا متأنسًا قد ولد، حيث إن "الكلمة هو الله" والكلمة صار جسدًا؟ لذلك يجب أن نقر أن ذاك الذي كان ابن الله اتخذ هيئة عبد وصار ابن الإنسان بولادته من العذراء مريم، وقد ظل علي ما كان عليه واتخذ لنفسه ما لم يكن عليه. وإذ ابتدأ أن يكون بهذه

[16] يو١:١٤.
[17] يو١:١.
[18] مت٢٦:٣٨.

الهيئة كإنسان، فقد كان أقل من الآب، "*أبي أعظم مني*"[١٩]، إلا أنه كائن هو والآب علي الدوام واحدًا[٢٠].

٣٠ـ لأنه إن كان ذاك الذي هو ابن الله أزليًا لم يصر ابن الإنسان، فكيف يقول عنه الرسول: "*الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله، لكنه أخلي نفسه آخذًا صورة عبد صائرًا في شبه الناس، ووجد في الهيئة كإنسان*"[٢١]، ليس هو آخر، لكنه هو نفسه مساوٍ للآب في صورة الله، والذي هو الإبن الوحيد للآب "*أخلي نفسه صائرًا في شبه الناس*"[٢٢]. هو ليس آخر، بل هو هو نفسه، المساوي للآب في صورة الله، "*وضع نفسه*"[٢٣] وليس آخرًا غيره "*وأطاع حتي الموت موت الصليب*"[٢٤]. كل هذا تممه ابن الله وهو في صورة ابن الإنسان. وبالمثل فإن كان الذي هو علي الدوام ابن الله لم يصر ابن الإنسان، فكيف يصف الرسول نفسه في رسالته إلي أهل رومية علي أنه "مفرز لإنجيل الله، الذي سبق فوعد به بأنبيائه في الكتب المقدسة، عن ابنه الذي صار من نسل داود من جهة الجسد"[٢٥]. فلاحظوا، فإن ذاك الذي كان علي الدوام ابن الله صار من نسل داود حسب الجسد صائرًا إلي مالم يكن عليه قبلاً. وبالمثل فإن كان ذاك الذي هو ابن الله لم يصر ابن الإنسان فكيفف حدث "*أن الله أرسل ابنه*

[١٩] يو١٤:٢٨.
[٢٠] أنظر يو١٠:٣٠.
[٢١] في٢:٦-٨.
[٢٢] في٢:٧.
[٢٣] في٢:٨.
[٢٤] في٢:٨.
[٢٥] رو١:١-٣.

مولودًا من إمرأة"[٢٦]. في اللغة العبرانية هذه العبارة "مولودًا من إمرأة لا تلغي معني العذراوية، بل تشير إلي الجنس الأنثوي. فمن هو الذي أُرسل بواسطة الآب سوي ابن الله. فهو يقول، إن المعمدان يبدو رائعًا جدًا وصادقًا تمامًا عندما يقول عن الإبن الوحيد، "لأنه كان قبلي"، أي هو أفضل ومتفوق عليَّ بغير حدود.

فكيف إذن ولد من إمرأة إن لم يكن ابن الله نفسه هذا الذي كان مع الآب قد أرسل وصار إبن الإنسان؟ هو مولود من الآب خارج حدود الزمن، وقد ولد من أم في هذا اليوم، هذا اليوم الذي خلقه هو، قد أختاره من أجل أن يخلق فيه جسده الخاص، مثلما ولد من الأم التي خلقها هو نفسه. هذا اليوم، الذي منه تستمدْ الأيام التالية له نورًا إضافيًا يرمز إلي عمل المسيح فينا، "*الذي يجدد إنساننا الداخلي*"[٢٧] يومًا فيومًا". في الحقيقة إن اليوم الذي فيه كانت كل المخلوقات في سلام وتوافق يكون هو يوم ميلاد الخالق الأبدي الذي خلق جسده الآن في الزمان.

عظة١٨٧

١ـ فمن ينطق بتسبيح الرب، الرب الذي به خُلقت كل الأشياء والذي صار جسدًا وسط كل أعمال يديه؛ وهو الذي يظهر أباه، وهو خالق أمه؛ وهو ابن الله المولود من الآب بدون أم، وهو ابن الإنسان المولود من أم بدون أب. هو عظيم في يوم الملائكة؛ وصغير في يوم الشر؛ وهو الكلمة، الإله الكائن قبل الزمان، والكلمة كجسد موجود فقط لفترة زمنية معينة. هو خالق الشمس وهو المخلوق تحت ضوء الشمس؛ مدبر كل الدهور من

[٢٦] غلا٤:٤.
[٢٧] انظر ٢كو٤:١٦.

حضن أبيه، ومن رحم أمه يكرس هذا اليوم، وبعد أن كان هناك خرج من هذا الرحم؛ وهو خالق السماء والأرض والذي وُلد علي هذه الأرض التي تظلها السماء؛ وهو حكيم بصورة لا يمكن التعبير عنها، وهو صامت بحكمة عظيمة؛ يملأ العالم كله وهو مضطجع في مذود، ويقود النجوم والكواكب، وهو رضيع علي الثدي؛ ورغم أنه صغير في صورة الإنسان ولكنه عظيم جدًا في صورة الله، بمعني أن عظمته لم تنقض بسبب حقارته. كما أن قدرته لم تسحق صغره. وحينما اتخذ هيئة بشرية لم يتخلي عن أعماله الإلهية ولا توقف [*أن يبلغ من آية إلي آية باقتدار، وأن يدبر كل شيء برفق*][28] وحينما اكتسي بضعف جسدنا فإنه حل دون أن يكون مسجونًا في بطن العذراء حتى أنه بدون طعام أو غذاء الحكمة المأخوذ من الملائكة يمكن أن نتذوق مقدار حلاوة الرب.

٢ـ لماذا ندهش من هذه القوات المتصارعة الخاصة بكلمة الله حينما يُفهم الحديث الذي أتكلم به بكل وضوح بواسطة المعاني الذي يتقبلها السامع رغم أنه لا يحجزها. فلو أنها لم تُقبل، لما أعطت أي تعليم؛ ولو أنها حُجزت لما وصلت إلي الآخرين. فرغم حقيقة أن هذا الحديث مقسّم إلي كلمات ومقاطع، فأنت لا تأخذ أجزاء منه كما تفعل مع الطعام لمعدتك، ولكنكم كلكم تسمعون الحديث كله وكل واحد يأخذ كل الحديث. وبينما أتكلم، فأنا لا أخاف أن أحد السامعين، باستماعه إلي قد يدرك الحديث كله حتى أن جاره لا يمكنه أن يدرك شيئًا منه. وبالعكس، فإني أريدكم أن تكونوا منتبهين جدًا دون أن تحرموا أذن وذهن أي شخص آخر. فأنتم كأفراد يمكن أن تسمعوا الحديث كاملاً، وفي نفس الوقت يمكن أن تدعو

[28] حكمة٨:١.

الآخرين أن يسمعوه أيضًا. وهذا الإستماع لا يتحقق علي فترات متتابعة من الزمن حتى أنه بعد أن يظل الحديث الذي ألقي إليك أنت أولاً، فإنه يتركك لكي يذهب إلي شخص آخر. لا، ليس كذلك فالحديث يأتي إلي الجميع في نفس الوقت والحديث كله يفهمه كل شخص. وإذا أمكن الاحتفاظ بالعظة كلها في الذاكرة، عندئذ كما انكم جميعًا تأتون لاستماع الحديث كله، هكذا أيضًا فكل واحد منكم سوف يخرج حاملاً الحديث كله معه. إذن كم بالأحري كلمة الله الذي به كان كل شيء، والذي هو ثابت في ذاته، يجدد كل الأشياء إذ أن الأماكن لا تحصره. ولا الوقت يقيده، والذي لا يتغير بفترات طويلة أو قصيرة من الزمن، كما أن الحديث لا يزينه، والصمت لا ينهي عليه. فكم يكون قادرًا أن يجعل رحم أمه مخصبًا حينما اتخذ الجسد البشري رغم أنه لم يترك حضن أبيه؛ وأن يجعل طريقه هنا متاحًا للعيون البشرية لكي تتفرس فيه، وأيضًا هو لازال ينير علي الأذهان الملائكية؛ وأن ينزل إلي هذه الأرض بينما هو يحكم السموات؛ وأن يصير إنسانًا هنا بينما هو يخلق أناسًا في كل مكان؟

٣ـ إذن فلا تدع أي إنسان أن يؤمن أن ابن الله تحول إلي إبن إنسان؛ بل بالحري فلنؤمن أنه بإحتفاظه بالطبيعة الإلهية كاملاً؛ وبإتخاذه الطبيعة البشرية كاملة فهو يظل ابن الله، وهو الذي صار أيضًا إبن الإنسان. لأن حقيقة قول الكتاب "وكان الكلمة الله، والكلمة صار جسدًا، لا يعني أن الكلمة صار لحمًا بطريقة تجعله يكف عن أن يصير إلهًا. لأنه حيث إن الكلمة صار جسدًا، فقد وُلِدَ في نفس الجسد "*عمانوئيل الله معنا*"[29]. وبطريقة مماثلة فإن الكلمة التي تصوغها في داخلنا تصير نطقًا حينما

[29] يو١:١، ١٤.

نخرجها من أفواهنا"؛ فالكلمة لم تتحول إلي نطق، ولكن الصوت الذي تخرج به يكون واضحًا بينما الكلمة الداخلية تبقي غير متغيرة؛ فالفكر يبقي في الداخل، والصوت هو الذي يسمع. ومع ذلك ما يعبر عنه بصوت سبق أن تم التعبير عنه بالصمت. وهكذا فحينما تصير الكلمة نطقًا فهي لا تتحول إلي هذا النطق، بل تظل في نور الذهن، وإذ تكون قد أخذت صوت الجسد، تصل إلي المستمع دون أن تترك المتكلم. فحينما يكون النطق سواء باليونانية أو اللاتينية أو أي لغة أخري يكون يكون التفكير فيه في صمت، ولكن حينما يوجد الأمر الذي يجب التعبير عنه عاريًا وغير مزين في غرفة القلب، فإنه يكتسي بصوت المتكلم حتى يمكن أن يخرج إلي خارج. فما يتم التفكير فيه في الذهن وكذلك ما يخرج بصوت في الكلام كلاهما متنوعان؛ فالفكر لن يستمر حينما تكون قد نسيته، ولا النطق يظل باقيًا حينما تكون صامتًا. أما كلمة الرب فتبقي إلي الأبد وتظل بدون تغيير.

٤ــ حينما اتخذ اللوغوس أو الكلمة جسدًا في الزمان، لكي يمكن أن يدخل في حياتنا الزمنية، فإنه لم يتخل عن أزليته وهو في هذا الجسد، بل اعطي عدم الموت لهذا الجسد. لذلك فإنه " *كعريس خارج من حجلته قد ابتهج مثل الجبار للسباق في الطريق*"[٣٠]؛ الذي رغم أنه بالطبيعة هو الله"، " *فهو لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله*"[٣١]، بل هو من أجلنا صار إلي ما لم يكن عليه، " *إذ أخلي نفسه*"[٣٢] فلم يترك جانبًا طبيعة الله، بل "آخذًا صورة عبد" وبواسطة هذه الطبيعة "صائرًا بشبه الناس" لا بحسب طبيعته الخاصة كإله، بل ظهر في صورة إنسان. لأن كل ما نحن عليه في النفس

[٣٠] مز١٩:٦.
[٣١] في٢:٦.
[٣٢] في٢:٧، ٨.

والجسد يشكل طبيعتنا كاملة. أما بالنسبة له فإن النفس والجسد هما فقط طبيعته المنظورة، فلو لم يكن لنا هذه النفس وهذا الجسد فلن يكون لنا وجود. أما هو فلو لم تكن له هذه النفس وهذا الجسد فهو يظل هو إلهًا. وبينما هو إله علي الدوام، فإنه صار إنسانًا؛ أي أنه بدأ أن يصير ما لم يكنه قبل ذلك، حتى أن الطبيعتين وليس طبيعة واحدة يمكن أن تنسبا إليه بالحق. ولأنه صار إنسانًا فإن قوله: " *أبي أعظم مني*"[٣٣] هو قول صحيح؛ وبسبب أنه إله فإن قوله: " *أنا والآب واحد*"[٣٤] هو قول صحيح أيضًا. فلو أن الكلمة تغير إلي جسد، أي لو أن الله تغير إلي إنسان فإن عبارة أن "أبي أعظم مني" هي وحدها تصير صحيحة لأن الله أعظم من الإنسان؛ اما العبارة الأخري"، أنا والآب واحد" تصير غير صحيحة حيث إن الله والإنسان ليس واحدًا. وفي مثل هذه الحالة فيمكنه أن يقول "أنا والآب كنا واحدًا" ولكن "لسنا الآن واحدًا"، بما معناه أنه كف عن أن يكون في الحالة التي كان عليها، أي أنه كان هكذا في الماضي، ولكنه لم يعد هكذا الآن. والعكس، فبسبب الطبيعة للخادم أو العبد التي إتخذها لنفسه قال بصدق "أبي أعظم مني". وبسبب طبيعة الله الحقيقية التي هي طبيعته قال بصدق مساوٍ "أنا والآب واحد". لذلك لقد أخلي نفسه بين البشر صائرًا إلي الحالة التي لم يكن عليها سابقًا. لا بمثل تلك الطريقة حيث يكف عن أن يكون علي الحالة التي كان عليها، بل هو يخفي حالته التي كان عليها، وأظهر فقط الحالة التي صار إليها. إذن، حيث أن العذراء حملت وولدت أبنًا بسبب طبيعته الظاهرة كعبد فإننا نقرًا " *يُولد لنا ولد*" [٣٥]؛ ولكن بسبب أن كلمة الله الذي

[٣٣] يو١٤:٢٨.
[٣٤] يو١٠:٣٠.
[٣٥] اش٩:٦.

يدوم إلي الأبد صار جسدًا لكي يسكن معنا، بسبب طبيعته الله الحقيقية رغم أنها خفية، فإننا إذ نستعمل كلمات الملاك جبرائيل نقول "*اسمه عمانوئيل*"[٣٦]. وإذ هو الله علي الدوام، فإنه صار إنسانًا حتى يمكن أن إبن الإنسان يُدعي بصواب "الله معنا". وهكذا، ففيه لا يكون الله شخصًا والإنسان شخص آخر. فليفرح العالم في أولئك الذين يؤمنون، هؤلاء الذين جاء من أجل خلاصهم، وهو الذي به خُلق العالم، وخالق مريم وَلِدَ من مريم، ابن داود لكنه رب داود، نسل إبراهيم الكائن قبل إبراهيم، صانع هذه الأرض، شُكّلَ علي هذه الأرض، خالق السماء، خُلِقَ كإنسان تحت ضوء السماء. هذا هو اليوم الذي صنعه الرب، والرب نفسه هو النهار المضيء لقلوبنا. فنلسلك في نوره؛ فلنتهلل ونكون فرحين فيه.

[٣٦] مت١: ٢٣.

نحن نحتفل بهذا اليوم بمهرجان سنوى، هذا اليوم الذي تم فيه تحقيق النبوة :

«الحق من الأرض أشرق والبر من السماء تطلع»

(مز ٨٤: ١٢).

- فالحق الكائن أزليًا في حضن الآب قد أشرق من الأرض لكي يوجد أيضًا في حضن أم.
- فالحق الذي يضبط كل العالم في مكانه، قد نبت من الأرض لكي يصير محمولاً على يدي امرأة.
- فالحق الذي يغذي سعادة الملائكة بغير فساد، قد أشرق من الأرض لكي يتغذى بواسطة لبن بشرى.
- الحق الذي لا تستطيع السموات أن تحويه، قد أشرق من الأرض لكي يُوضع في مذود.

(من عظة ١٨٥)

يُطلب هذا الكتاب من :

- المركز الأرثوذكسى للدراسات الآبائية ت : ٢٢٤١٤٠٢٣.

E-mail: opcc2007@yahoo.com Website: www.patristiccairo.com

- بيت التكريس ت : ٢٦٧٤٥٢١٩، ٢٤٨٣٦٣٨٩.
- ومن المكتبات والكنائس بالقاهرة والأقاليم .

سعر النسخة

٢,٠٠ جنيه